قد كان لي قلب ! ...

للأستاذ كامل محمود حبيب

هفت الشمس إلى المغيب ، وخبا هجير الحر أو كاد ، وأنا جالس في مقهى من مقاهي طنطا إلى نرجيلة أبسم لها وتبسم في هدوء ، وبين يدي كتاب أنبذه بين الحين والحين ، لأسرح النظر في هذا الناس ، وهم يتدفقون زمراً إلى حيث يتنسمون روح الجنة بعد إذ هبت عليهم زفرات الجحيم تحبسهم في الدور ساعات طوالاً

* * *

ما لهذا الفتى هنا في غير داره يمشي وحيداً ، يثاقل في مشيته ، مطرق الرأس ، مقطب الجبين ، ساهم النظر ؟ إنه يتراءى لي كأن وقدة الشباب التي كانت تتسعر في قلبه قد انطفأت وهو ما يزال عند الثلاثين ، وكأن نزوات قلبه قد عبثت بها يد الأيام فاستحالت إلى ما أرى : إلى هم وكمد ، أو هو يرزح تحت عبء ثقيل ينوء به

عرفته وعرفني منذ سنوات وسنوات ، وقضينا معاً عمراً من العمر كان لذيذاً حلواً ، وكان هو — كدأبه أبداً — روح الجماعة الطروب ، والضحكة الخالصة الرنانة ، والنكتة الحاضرة الجميلة و ... فما بالي أراه اليوم فيما أرى ؟ لعل حدثاً من حوادث الأيام قد انحط عليه فسلبه رواء الشباب وبهاء الحياة

وتعلق بصري به وهو يسير إلى غايته لا يرفع رأسه ولا يلتفت يمنة ولا يسرة ، كأن شيئاً في هذا الخضم المضطرب حوله لا يعنيه ؛ وأنا على خطوات منه لا أستطيع أن أناديه ، وفي الصوت بحة ، والنفس إلى لقياه مشوقة بعد سنوات من فراق أرغمنا عليه دواعي العيش

يا عجبا ! لقد مستني روحه الحزينة ، فوجدت لذع الأسى في قرارة نفسي !

وناديت الندل علّه يردّ صاحبي إليّ

* * *

ورآني الفتى فتبسطت أسارير وجهه هوناً ما . وأقبل فسلّم وسلّمتُ ، ثم جلسنا في صمت أنا إلى نرجيلتي ، وهو إلى خواطر نفسه . . .

وألحّ عليّ الأسى والعطف في وقت معاً . فاستلبتني من لذاذات كنت أجدها في الكركرة وفي الكتاب وفي النظر إلى هذا الناس . فالتفت إليه أقول : « أهكذا أنت ؟ »

قال : « نعم ، يا صاحبي ، قد كان لي قلب فضيعته ! » ... وترقرقت في محجريه عبرات مكفوفة تريد أن تجد لها منفذاً . . . فشملني حزن عميق ودهشة ، وأنا أعرفه زوجاً ، وأعرفه في أيام لهوه لا يحجم في إباء ، ولا يندفع في طيش . ثم قلت في لهفة : « وكيف ... كيف » ؟ !

قال : « أما القصة فهي قصة قلبي ... قلبي أنا ، فهو قد ألقى بي في مضلات تتقاذفني ، فلا أجد منها الخلاص » . ثم سكت سكتة حزينة وكأنه يلم شعث تاريخ أيامه ، أو كأنه يصارع في نفسه أمراً فيه الشجن والألم » ... ثم قال : « عرفتها فيمن عرفت ، فتاة كطفلة بضة ، فيها الجمال وفيها الأنوثة ؛ ولمست فيها أشياء جذبتني إليها . فاندفعت إلى جانبها في طريق لا يثلم الشرف ، ولا ينحط بالكرامة ، وهي تبادلني غراماً بغرام ، وعطفاً بحنان ! وذهبت أتلمس السبيل إلى دارها ، بين الفينة والفينة فلا تعوزني الحيلة . وكيف ، وأخوها شاب في مثل سني ؟ ! »

« وتصرمت أيام وأيام ، وشيطان الهوى يشب في قلبي وقلبها في آن . فلا نفترق إلاّ على ميعاد ، ولا نتلاقى إلا على شوق » ! وفي ذات صباح كتبتْ إليّ : « أفرأيت بالأمس وأنا أسير إلى جانبك في شارع . . . لقد رآنا واحد من أصدقاء أخي الأكبر الذين شبوا معه منذ الطفولة ، وتعلقت حبال قلبه بدارنا . فحمل إليه خبر فضيحتي في غير تحرج . . . وأقبل أخي والشرر يقدح من نظراته ، وهو يتوثب غضباً وحنقاً ! ... وراح يفرغ لعناته على رأسي أنا ، فبت بأسوأ ليلة ؛ وهكذا أصبحت غرضاً يتندر به القوم ويسخرون منه ... هذه حياة نارية ضيقة تنذرني بويلات العيش وعار الفضيحة ... لا أطيق الصبر عليها إلاّ أن تمدني بيد منك قوية ، أو بلفظة رشيدة ! أنت وحدك تستطيع أن تنقل على هذا السعير الملتهب فيحور رماداً ... ! »

« وانكشف أمامي ما أرادتْ ، فرحت أقلب الأمر فما أهتدي إلى رأي » ! !

وفي المساء جاءني حديثها : « ... تلك إذن أنانية الرجل ، يلهو ما انفسحت أمامه طرق اللهو ، ويعبث فنوناً من العبث ؛ فإذا جد الجد خرج من إنسانيته ، وألقى بالتي أحب في تنور يتلظى ، وطار هو آمناً إلى حيث يلتقط الحب ... ! »

واضطرب قلبي لهذه الكلمات القاسية ! فطرت إلى أخيها — في غير أناة ولا روية — أسر إليه بأمر ، فبدت على وجهه سمات الهدوء والطمأنينة . ثم انطلقت وفي نفسي أن الأزمة قد تفرّجت على حين لم أخسر أنا شيئاً

وغدا أخوها إليّ ، وفي رأيه أن آصرة أخرى قد ربطت بيني وبينه ، فدفعته في هوادة ، وانطويت عنه في رفق

وغبرت زماناً لا أوصد الباب دونه ، ولا ألين لكلماته ، والفتاة تستحثني إلى أمر ، والقضاء من ورائهما يدفعني إلى غاية

وعلى حين غفلة مني ألقيت إلى أهلها السلم ، فإذا أنا زوج للمرة الثانية !

وتناهى الخبر إلى زوجتي الأولى ، ففزعت إلى أهلها ، وفي أحشائها بضعة مني ، وخلّفتني ونزوات قلبي

* * *

ودخلت زوجتي الثانية داري ترف رفيف الأمل الحلو ، تملأ الدار والقلب جمالاً وبهاء ، فسكنت إليها وسكنت هي

وسيطر على الهوى ، فران على قلبي . فلم يدعني أفكر فيما اقترفتُ من جُرم جرّته الغواية العمياء على زوجتي الأولى وعلى ابني جميعاً ... فاندفعت لا ألقي السمع إلى صيحات هذا الطفل ، ولا أبالي بآلام الزوجة المسكينة ، ولا أعبأ بوخزات الضمير

وقابل أهل زوجتي الأولى حماقتي بلطف ، وجهلي بحلم ، وغوايتي بكرم ، وجنايتي بإحسان ! ... على حين كانت الزوجة الثانية تسعد إلى جانبي ، وتبذل غاية الجهد في أن تسيطر على قلبي جميعه لتسدل بيني وبين زوجتي الأولى وابني ستاراً كثيفاً من النسيان ، وتستحث الأيام لتغريني بأمر

وهبّ القلب من رقدته بعد سنوات ثلاث ، فانطلقت أريد ابني وقد فقدته منذ زمان ، فما أبت الزوجة ولا استعصى ذووها فإذا ابني بين يدي ألمح فيه أيام طفولتي : أداعبه فيبسم ، وألاطفه فيضطرب ، وأضمه إلى صدري فيتعلق بي . وكأنه يقول : « أين كنت يا أبي ؟ لا تذرني هنا يتيماً ، فأستشعر الذل والمسكنة ، وأنا ما أزال طفلاً يحبو » فخرجت من لدنه وفي رأسي عاصفة هوجاء ما تستقر !

آه ! لقد زعمتُ أن قلبي يطمئن حين أخلص إلى ابني وزوجتي وهأنذا قد طرحت التي أحب فطرحت معها قلبي ... آه ! يا صاحبي ، لقد كان لي قلب فضيعته وأنا الآن — كما ترى — أضرب في أرجاء الأرض وحدي لا أجد القرار ولا أستمتع بالحياة . لقد خيّل إليّ أن المرأة سلعة فإذا هي راحة القلب وبهجة الدار وجمال الحياة ، فأين أجد السلوة يا صديقي ؟

* * *

وأردت أن أرفّه عن صاحبي بعض ما آلم نفسه فتدفقت عبراته وهو يقول : « لا تحدثني الحديث فتهيج من أحزاني . إن في النفس حسرة وفي القلب جرحاً ما يندمل ، وفي ... وفي عيني عبرة ما ترقأ . ويْ كأن القدر أراد أن يقتص مني مرتين مثل ما جنيتُ مرتين ! »

فاضل محمود حبيب

ليلى المريضة في العراق

كتاب يفصل وقائع ليلى بين القاهرة وبغداد من سنة ١٩٢٦ إلى سنة ١٩٣٨ ، ويشرح جوانب كثيرة من أسرار المجتمع وسرائر القلوب في مصر والشام والعراق .

يقع في ثلاثة أجزاء وثمن الجزء ١٢ قرشا

ويطلب من المكتبات الشهيرة في البلاد العربية

معهد التناسليات

معهد التناسليات تأسيس الدكتور ماجنوس لتميز شقله فرع القاهرة بعيادة رقم ٤ شارع الرابع تليفون ٥٢٥٧٨ يعالج جميع أمراض الزهرية والبولية والتناسلية والمقعدية للرجال والنساء وتجديد الشباب والتبرعة المبكرة . ويعالج بصفة خاصة : زيادة الحاسة طبقاً لأحدث الطرق العلمية والعيادة من ١٠-١ و ٤-٦ . ملاحظة : يمكن إعطاء نتائج بالرسالة للمتعهدين بعيادة القاهرة بعد أداء مبلغ عشرة قروش الميري لوجبة الجزوة على ١٤١ سؤالا التي يمكن الحصول عليها نظير ٥ قروش